مزية دلالة التوكيد بين (إنما) و (إنّ) في القرآن المجيد

The Significance of Emphasizing Distinction between 'Inma' and 'Inna' in the Noble Quran

أ.م.د. عبد الجواد عبد الحسن علي [1]

Assist. Prof. Abdul-Jawad Abdul-Hassan Ali

الخُلاصة

نحاول أن نوضحه في هذا البحث هو امكانية استقلالية (إنما) كأداة عن هذا التركيب الذي افترضه النحاة ولم يُعنِ النحويون ولا غيرهم بدراسة تركيب الجملة التي تقع فيها (إنما)، ولا السياق الذي يتضمن دلالتها، فضلا عن كون دلالتها على الحصر و التوكيد تأتي بمنزلة التوكيد بـ (النفي + إلا)، خلافا للحرف (إنّ)، كذلك توحي دلالتها على أحد حرفي العطف (بل) و (لكن)، إنّما هي نواحٍ تركيبية سياقية قامت بتحديدها هذه الدراسة مستنبطة إياها من مواضع استعمال (إنما) في القرآن الكريم، من هنا جاءت أهمية البحث في أغراض (إنما)، في خلال النصوص القرآنية المباركة.

الكلمات المفتاحية: إن التوكيدية، الحصر، القصر، دلالة السياق.

Abstract

The present research aims at clarifying the potential independence of the particle "inma" (but) as a tool from the assumed structure by grammarians. Grammarians, and others alike, have not concerned themselves with studying the sentence structure in which "inma" occurs, nor did they pay attention to the context that includes its meaning, let alone its function of restriction and emphasis, similar to the conjunctions "but" and "rather."

١- كلية الآداب / جامعة أهل البيت -عليهم السلام-.

These contextual and structural aspects have been determined by this study, derived from the positions where "inma" is used in the Quran. Hence, the study highlights the importance of researching the purposes of "inma" within the Quranic texts.

Keywords: The Emphatic Particle 'Inna': Restriction, Confinement, Contextual Significance

المقدمة

لم يلتفت أكثر النحويين المتقدمين إلى دلالات النصوص القرآنية التي ترد فيها (إنما)، مكتفين بالإشارة إلى أنها مركبة من (إنّ) التوكيدية و(ما) الكافة، وهذا التركيب برمته يعمل على إبطال عمل (إنّ)، وقد تابع البلاغيون النحويين في أن الدلالة الأساس لـ(إنما) الحصر، إذ إنه بمنزلة إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فضلا عن اشتراكها مع (إن) في دلالة التوكيد، و ما نحاول أن نوضحه في هذا البحث هو امكانية استقلالية (إنما) كأداة عن هذا التركيب الذي افترضه النحاة ولم يُعنِ النحويون ولا غيرهم بدراسة تركيب الجملة التي تقع فيها (إنما)، ولا السياق الذي يتضمن دلالتها، فضلا عن كون دلالتها على الحصر و التوكيد تأتي بمنزلة التوكيد بـ (النفي + إلا)، خلافا للحرف (إنّ)، كذلك توحي دلالتها على أحد حرفي العطف (بل) و (لكن)، إنّما هي نواحٍ تركيبية سياقية قامت بتحديدها هذه الدراسة مستنبطة إياها من مواضع استعمال (إنما) في القرآن الكريم، من هنا جاءت أهمية البحث في أغراض (إنما)، في خلال النصوص القرآنية المباركة؛ فتطلبت ضرورة البحث أن ينقسم إلى مبحثين: أولهما: تناولَ المعاني اللغوية، و الآخر أخذ بتلابيب المعاني الاصطلاحية، و من الله التوفيق عليه توكلت و إليه أنيب..

تمهيد

لمزية الحصر بـ (إنما) إنها حصرت أحد ركني الإسناد في الآخر، وهو أمر اقتضى أن يلزم المحصور والمحصور فيه موقعيهما في التركيب، وعند كف (إنّ) عن العمل زال اختصاصها من الدخول على الجملة الاسمية، كذلك يتوسع عمل (إنما) فتدخل على الجملة الفعلية، بخلاف (إنّ)، ودلالة (إنما) هي الحصر في الأصل، وهي دلالة سياقية؛ وغالبا ما يُعوّل على السياق في إخراجها من دلالتها (الحصرية) بشيء من التوسع كما هو الأمر في همزة الاستفهام التي قد تدل في سياقها على غير الاستفهام كالعتاب والتوبيخ والسخرية؛ وقد أثارت مسألة (استعمالات إنّما السياقية) حفيظة أحد اللغويين المحدثين إذ تبنى مذهبا مفاده أن لهذا الحرف معان مختلفة تُلتَمس من السياق، ومن الخير اكتسابها لا إهدارها، وبدأ الباحث بالإشارة إلى جهود العلماء في درس هذه الأداة ليدوّن جملة من الملاحظات منها أنّ أكثر جهود النحويين عنيت بإعراب الأداة أمّا بإعمالها أو إهمالها، ومن تلك الجهود التي أغفلها النحويون المتأخرون هي جهود عبد القاهر الجرجاني في بيان معاني (إنما) (بحث الدكتور عادل حسني يوسف ٢٠١٠)، إذ استدلّ بأن سيبويه لا يذكر معنى الحصر

بل التحقير، وأورد زعْمَ البطليوسي في إن لها معنيين عند البصريين التقليل والاقتصار، وذكرَ كذلك أن الجرجاني أورد لها معانٍ عديدة، وفي هذا الصدد تابع الدكتور عادل حسني موقف عبدالقاهر الجرجاني ملاحظًا أثر نظرية النظم في مقاربته لـ(إنما) وتذوقه لشواهده؛ أمّا مذهب السيوطي فمخالف لرأي الجمهور في (إنما) قال: (ذهب الجمهور إلى إنها للحصر، وأنكر قوم إفادتِها، منهم أبوحيّان)؛ وقال باحث أخر: ((وأظن أنّ هذا القدر من الآراء كاف لامتحان كلام السيوطي، وبيان أنه ليس في هذه الآراء، ما يعينه على التصريح بما قاله)) (بحث الدكتورة مها صالح عبد الرحمن ١٤٢٤ هـ)[٢]، والحقّ عندي أنّ هذا القدر من الآراء، لقلّتها، لا يخلّ بما قاله السيوطي عن مذهب الجمهور، مع أنّ هذه الآراء – إذا أثبتت لـ (إنّما) معنى غير الحصر، ولذلك كان للمحدثين موفقًا في ردّ اقتصار السيوطي على إنكار أبي حيّان معنى الحصر في (إنما)، فأبو حيّان وإن أنكر دلالتها على الحصر ذكر إشعارها بالحصر، وجاء بمعان أخر، والمتأمل لقول السيوطي يراه يذكر أنّ جمهور النحاة يثبتون لـ (إنما) معنى الحصر؛ ولكنه لا يعني بالضرورة نفيه أنهم يرون استعمالها في غير الحصر؛ ومن ثمّ فالاستدلال بإهمال ذكر الحصر لـ(إنما) في كتاب سيبويه هو استدلال بدليل عدميّ، فتجاهله الإشارة إلى معنى الحصر لا يعني أنه لا يراها كذلك، فقد فات سيبويه من الأبنية ما استدركه لاحقوه، والموضع المستشهد به من نصّ الكتاب نصّ واحد جاء في سياق بيان حكم رفع الفعل أو نصبه بعد (حتّى)، وكذلك ما هو مثله من التقليل، وهو معنى يمكن أن يُستفاد من دلالة (إنما) على الحصر، فالمعنى المختلف هو للحصر بـ(إنما) وليس لها نفسها، كما يكون للاستفهام غير معنى، وإن لم تَزُلْ أداة الاستفهام عن معنى الاستفهام. وكما يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي من طلب تعيين أو تصديق يخرج الحصر إلى معنى التقليل أو التحقير، وشرح السيرافي نص سيبويه فذكر أنّ (إنما) تكون على وجهين: أحدهما تحقير الشيء، والأخر الاقتصار عليه)(الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي،تح:أحمد حسن مهدلي، ٢٠٠٨)، [٣]، ومراجعة استعمال الأداة في لغة الكتاب نفسه لا تبيّن استعمالها للتحقير بل للحصر،؛ وإن أمكن أن نفهم من بعض مواضعها في النصوص القرآنية معانٍ أخرى للحصر مثل الإضراب، و الاستدراك، وآية دلالة (إنما) على الحصر في كلّ مواضعها السابقة أنّا يمكن إحلال (ما) النافية و(إلا) محلها. و لعل منشأ فكرة نفي الحكم عما سوى المذكور بعد (إنما) كان عند سيبويه، لكنها اتضحت عند الفراء، ثم طبّقها الزجاج في تفسيره، وعمّقها أبو علي الفارسي، ثم انتشرت عند لاحقيه، فقد ذهب الفراء في قوله تعالى: ﴿إنّما حَرّمَ عَلَيْكُم الميتَةَ و الدَمَ و لَحْمَ الخنزيرِ﴾ (البقرة ١٧٣): (إنّما على وجهين: أحدهما أن تجعل "إنّما" حرفا واحدا ثم تُعمِل الأفعال التي بعدها في الأسماء، نحو قوله تعالى: ﴿إنّما يأمركم بالسوء و

٢- (إنما في السياق: التركيب و الدلالة)، أ. د. مها صالح عبد الرحمن الميمان، بحث منشزر في مجلة الدراسات اللغوية (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية)،، المجلد الخامس العدد الرابع الصادر في شوال-ذي الحجة ١٤٢٤هـ.

٣- شرح الكتاب، للسيرافي، ج٣، ٢١٥.

الفحشاء﴾ (البقرة: ١٦٩).(يحي بن زياد الفراء، ١٩٨٣) [٤]؛ أما دلالة (إنما) على نفي الحكم عما سوى المذكور بعدها فتأتي من تأكيد ذلك الحكم و إثباته لما بعدها، حيث ينحصر المعنى فيه دون غيره، كما تأتي في خلال معنى النفي الذي تلقيه (ما) الزائدة في (إنما) التي أصل معناها النفي.

المبحث الأول: الدلالة اللغوية

المطلب الأول: دلالة التمييز البنيوي بين (إنّما) و (إنّ)

يبدو للباحث أنّ الحرف (إنّما) بتركيبته اللفظية من (إنّ + ما) تركيبةً دلالية منفردة، أكثر مما هو تركيب نحوي، إذ ينشأ عن ذلك حرف جديد مركب يدخل على الجمل الإسمية و الفعلية، فإذا دخلت على الفعل سُميت (ما) (مهيئة أو موطئة) (جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تح: الدكتور مازن المبارك، ٢٠١٥؛ و المرادي، ٢٠٠٧) [٥]، و قد أبطل المتأخرون من النحويين و البلاغيين تركيبها من (إن) التي للإثبات و التوكيد، و (ما) النافية (أبو حيان الغرناطي، تح: الدكتور عبد الرزاق المهدي ٢٠١٠، و المرادي، ٢٠٠٧) [٦]، إذ تخلوا استعمالات (ما) بأجمعها عن معنى الكف، واستعمالاتها الأخرى كثيرة مذكورة في كتب النحو؛ ومن ذلك التركيب المشابه (لولا) فهي مركبة من (لو) و(لا)، قال سيبويه: (لوما و لولا) فهما لابتداء و جواب، فالأول سبب ما وقع، و الأخر مالم يقع) (سيبويه أبو بشر عمر بن عثمان، تح: عبد السلام هارون، ١٩٨٨) [٧]، وتابعه المبرد بقوله: (لولا حرف يوجب امتناع الفعل لوقوع اسم... جُعِلتا شيئاً واحداً، و أُقِعَتا على هذا المعنى) (أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تح: محمد عبد الخاق عضيمة، ١٩٩٤) [٨]؛ كذلك (إنّما)؛ إذ إنّ الفارق بين الحرفين (إنّ – إنّما) هو الدلالة السياقية و ليس دلالة تركيب الحرف نفسه، ففي أغلب الحروف نلحظ أن الحرف يخلو في نفسه من معنى، ولما كان هذا التركيب سياقيا، فمن المسلّم به أنّ الناتج الدلالي لهما مختلفٌ لاختلاف البنية، و نلحظ كذلك مذهب الخليل أن (إنّما) حكاية فهي بمنزلة فعل ملغي لأنها لا تعمل فيما بعدها نحو قولنا: أقرُّ لَمحمدٌ خير منك، فالفعل (أقر) ملغي لا عمل له في الجملة، (سيبويه أبو بشر عمر بن عثمان، تح: عبد السلام هارون، ١٩٨٨) [٩]، و يصطلح سيبويه على (ما) المتصله بأنّها (مغيّرة) لأنّها غيّرت الحرف الذي دخلت عليه فصرفته عن وظيفته الموضوع لها و جعلته بمنزلة حروف الابتداء، وزعم سيبويه أنّ (ما) مع (إنّما) اسم مبهم بمنزلة ضمير الشأن، (سيبويه أبو

٤– معاني القرآن، أبو زكريا يحي بن زياد الفراء، ج١، ص ١٠٠، دار الكتب بيروت، ط٣، ١٩٨٣،
٥– ينظر: مغني اللبيب، ابن هشام اللأنصاري، ج١ ص٥٩٠. و جنى الداني، المرادي ص٣٣٥، و رصف المباني، المالقي، ٣٨٤.
٦– ينظر: البحر المحيط، أبو حيان الغرناطي، ج١ ١٩١، الجنى الداني، المرادي، ٣٩٧، مغني اللبيب، ابن هشام الانصاري، ج١ ٥٩١.
٧– الكتاب، سيبويه، ج٢، ص ٣٢١. و ينظر: المغني اللبيب، ج٣، ص ٤٤٥.
٨– المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، ج٣، ص ٧٦، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، ١٩٩٤، ط٢، القاهرة.
٩– الكتاب، سيبويه، ج٣، ٣٦٤ – ٤١٥ – ١٥٠.

بشر عمر بن عثمان، تح: عبد السلام هارون، ١٩٨٨) [١٠]، ومذهب الفراء أنّ (إنّما) تقع على وجهين أحدهما: أن تكون حرفا واحدا وعليه ينبغي إعمال الأفعال التي بعدها في الأسماء فإن كانت رافعةً رفعت و إن كانت ناصبةً نصبت، و الوجه الآخر أن تجعلها منفصلة فترد لمعان أخرى في (ما)، (أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تح: أحمد يوسف النجاتي و آخرون، ١٩٧٨)[١١]، و يعول الباحث على رأي عبد القاهر الجرجاني في دلالة (إنّما)، إذ لم يسبقه أحد من النحاة في توجيه (إنّما) فقد أخرجها من الدلالة النحوية إلى الدلالة البلاغية ومذهبه أنّها حرفٌ واحدٌ يجيءُ لخبرٍ لا يجهلهُ المخاطَب ولا يدفَعُ صحَّتَه، أو لما ينزَّل هذه المنزلة، خلافاً لـ (إنّ) فإنها صوت يفيد التوكيد لخبر يجهله السامع، و لا يطمئن له تمام الاطمئنان لفقدانه مبرر التوكيد و الدافع إليه، (عبد القاهر الجرجاني، تح: الدكتور ياسين الأيوبي، ٢٠٠٢) [١٢]؛ وتابعه من المجدّدين الدكتور ابراهيم السامرائي، إذ ذهب إلا إنّ (إنما) تأتي كافة و تأتي غير كافة نحو قوله تعالى: ﴿إنّما يأمُرُكُمْ بالسّوءِ و الفَحْشَاءِ﴾ (البقرة: ١٦٩) (فاضل صالح، ٢٠٠٣) [١٣]، و ثمة ملحظ عند باحث آخر يرى أنّ (إنّما) وحدة لغوية واحدة غير مركبة و تفيد درجة من التوكيد تزيد على درجة التوكيد في (إنّ) و حدها (الدكتور خليل أحمد عمايرة ١٩٨٧) [١٤]؛ ويرجّح الدكتور عمايره الرأي القائل إنّ ما يشيع عن الحرف (ما) تركيبّها مع كثير من الحروف و الأسماء في العربية؛ و مما ينبغي التنويه عنه دخول (ما) الموصولة على (إنّ) ولكن من دون دمج الحرفين، فإنها لا تبطل عمل (إنّ) بل تكون هي الاسم، نحو قوله تعالى:﴿إنّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾(الانعام ١٣٤)، فـ (ما) هنا لم تبطل عمل (إنّ)؛ لأنها اسم موصول بمعنى (الذي)، أي: إن الذي توعدونه لآت (أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تح: أحمد يوسف النجاتي و آخرون، ١٩٧٨) [١٥]؛ ويبدو للباحث أنّ الحرف (إنّ) يُقاس على عمل (إنّما) في قصر خبرها على اسمها، كما يُقاس عمل (ما) النافية على عمل (ليس) في العمل الوظيفي (الإعراب)، و الدلالي (النفي) في قوله تعالى: ﴿مَا هَذا بَشَراً﴾ (يوسف ٣١)، وما ذكرته كتب النحاة في مذهبي (ما) بين أهل الحجاز و غيرهم (ابن مالك جمال الدين محمد بن عبد الله، تح:محمد عبد القادر عطا و آخرون، ٢٠٠١) [١٦]. إذ نلحظ في قوله تعالى: ﴿إنّه

١٠- المصدرنفسه، ج٤، ٣٤٢.
١١- ينظر: معاني القرآن للفراء، ج١، ص ١٠١.
١٢- دلائل الإعجاز في علم المعاني، الامام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق الدكتور ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية بيروت، ٢٠٠٢، ص ٣٢٧.
١٣- ينظر: معاني النحو، الدكتور فاضل صالح السامرائي، ج ١، ص ٢٩٨، شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣.
١٤- ينظر: في التحليل اللغوي، الدكتور خليل أحمد عمايره ص ٢٣٤، ط١، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٧.
١٥- ينظر: معاني القرآن للفراء، ج١، ص ١٠١.
١٦- شرح التسهيل تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد لابن مالك، تأليف: جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني الأندلسي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا – طارق فتحي السيد، ج١، ص ٣٥١ ص٣٩٢، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، ٢٠٠١.

لَقرآن كريم﴾ (الواقعة: ٧٧)، يتضح انحصار صفة الجمع بالقرآن نفسه بدلالة دخول (الام) المزحلقة على الخبر، كما هو عليه الحال في (إنّما) التي تفيد الغرض نفسه، نحو قوله تعالى: ﴿إنّما المسيحُ ابنُ مريمَ رسُولُ اللهِ﴾ (النساء: ١٧١)، فقد قُصِرَتْ الرسالة على عيسى -عليه السلام-، ونتيجة لذلك اتضح للباحث أنّ الاداة (إنّما) تختلف عن الحرف (إنّ) من حيث الوضع اللغوي، ولا نرى موجب للاستغراق في الصنعة النحوية، فينبغي أن نعرض عن الرأي السائد من إنّها مركبة من (إن + ما)، و إنّ (ما) هي التي تكف (إنّ) و تمنعها من الوصول إلى المبدأ و الخبر، فيتعطل عملَها الوظيفي، و الدلالي، و مسوّغ هذا الحكم هو انعدام وظيفة (الكف) في معاني (ما) مطلقا، و يخالف الدكتور ابراهيم السامرائي الجمهورَ بأنّ الكف عن العمل هو واحد من وضائف (ما) و إنْ أغفلَه النحويون، و يرى أنّها مهيأة لأدخال الكلمة على ما لم تكن تدخل عليه، و يذهب إلى أنّ الأحرف المشبهة بالفعل مختصة بالجمل الإسمية، فإن دخلت عليها (ما) وسّعتْ دائرة استعمالها فأدخلتْها على الجمل الفعلية أيضا، نحو قولنا: (إنّما محمدٌ قائمٌ) فهذا توسيع لدائرة التوكيد و الترجي و التشبيه، وكذلك في دخولها على (ربَّ)، و يرى الدكتور فاضل صالح السامرائي أنّ ربَّ منحصرة في دائرة ضيقة من الاستعمال وهو الاسم النكرة فقد هيأته (ما) الكافة للدخول على مالم تدخل عليه من اسم معرفة أو جملة فعلية فتوسع معنى التقليل الذي كان منحصرا في دائرة معينة، ونحو ذلك في – قلّ– طال –كثر، نقول: قلما – طالما –كثرما)، (الدكتور فاضل صالح السامرائي، ٢٠١٧) [١٧]؛ وهنا نتساءل! لماذا يختلف المعنى فيما إذا اتصلت (ما) التي أبطلت العمل، و ما سبب اختلاف الإعراب؟ يبدو للباحث أن لامندوحة من أنّ اختلاف المبنى يؤدي إلى اختلاف المعنى، و السبب هو اختلاف البنية، و تذبذب الصوت في تنغيم العبارة، و توجيه مغاير في الدلالة، فضلا عن إنّ أصل الوضع بينهما، فمعاني (ما) كثيرة إذا وردت منفردة، تكتظ بها كتب النحو، ولكنْ لايوجد ضمن معانيها أنّها ذات وظيفة مستقله هي الكف عن العمل، بقدر ما هي من تقعيد النحويين المتقدمين، الذين لم يقفوا على دلالتها الصوتية، فاختاروا أقصر الأساليب لتقعيدها، ويبدو للباحث أنّ (إنّما) غير مركبة بل أداة واحدة؛ لاختلاف وظيفتها النحوية عن (إنّ) و كذلك لاختلاف الدلالة السياقية، و الدلالة الصوتية، و في الاستعمال اللغوي و التقعيد النحوي ولها نضائر كثيرة في النحو، منها: (كم) فإنّها ترد استفهامية و كذلك ترد خبرية، علماً أنّ مبناها الظاهري واحد في كلا الموضعين، لكنّها مختلفة في دلالة السياق، و الجملة الصوتية، ففي عمومها هي اسمُ كناية غامض مبهم مبني على السكون، على حين نلحظ جمهور النحاة يقعّد الفرق بين وظيفتي (كم) ودلالتيهما، فالخبرية عندهم اسمٌ غامض مبهم، مبنيٌّ على السكون بناءً لازماً، يُكنى به عن الكثرة المجهولة (الكمية)، وترد للتفاخر ولا تحتاج إلى جواب، يكون تمييزها مفردا وهو الأكثر، والأبلغ، أو جمعا نكرة مجرورا بإضافتها

١٧– معاني النحو، الدكتور فاضل السامرائي، ج١، ص ٢٩٨.

إليه، أو بحرف الجر (جمال الدين بن يوسف ابن هشام الأنصاري، تح: الدكتور مازن المبارك، ٢٠١٥؛ و المرادي، ٢٠٠٧) [١٨]، نحو قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي اسرائيل كم آتيناهم من آية﴾ (البقرة: – ٢١١)؛ و الاستفهامية كذلك اسمٌ كناية غامض مبهم، مبنيٌّ على السكون،، يستفهم به عن عدد مجهول الجنس والمقدار، يراد تعيينه، و لها الصدارة كبقية أسماء الاستفهام، فلا يعمل فيها ما قبلها إلاّ إذا كان مضافا، أو حرف جر، نحو قوله تعالى: ﴿قالَ قائِلٌ مّنهمْ كَمْ لَبِثْتُم قالوا لبِثنَا يومًا أو بعضَ يومٍ﴾ (الكهف: – ١٩)، فلا مندوحة من قياس الفارق بين (إنّ) و (إنّما) في الدلالة، فإذا قلت: إن زيداً قائمٌ، أو إنّ زيداً لقائمٌ، فلا يمنع أن يكون غيره قائماً أيضاً، لكن إذا قلت: إنما زيدٌ قائمٌ، فقد حصرت (زيداً) في القيام، و أبطلت القيام على غيره؛ أي: لم يقم غيره؛ لإن (إنما) أداة حصر، لكن هذا لا يتعين إلا إذا قلت: إنما زيدٌ القائم، فهنا يتعين انحصار القيام بزيد وقصره عليه، وتقول: علمتُ أن زيداً قائمٌ، فإذا قلت: علمت أنما زيدٌ قائمٌ، تغيرت الدلالة و المقصود من الجملة؛ وهكذا العمل مع أخوات (إنّ)، إذ يرى بعض النحويين أنّ هذه الحروف إذا دخلت عليها (ما) جاز فيها الإعمال و الإلغاء و عندهم العمل في (إنّ و أنّ) أضعف منه في أخواتها (أبو علي الشلوبين، تح: الدكتور يوسف علي المطاوع، ١٩٨١) [١٩]. والعلة في ذلك: أنّ البنية بينهما مختلفة، ولماذا نبرر بطلان عمل (إنّ) عدم تسلطها على ما بعد (ما)؛ ولهذا يرى الباحث أنّ الحرف (ما) من أصل بنية الأداة (إنّما)، و ليس لديها دخول عارض على (إنّ) كي يتحول عملها إلى الكفِّ؛ لأن (ما) حرف لا عملَ وظيفي له أصلا في السياق، وزعم ابن الحاجب أن أغلب النحاة اختلفوا في (ما) الملحقة في (إنّ) ونقل عن ابن جني مذهبه أنها استفهامية، و وقرار الجرجاني أنها نافية، فالكافة إنّما تدخل لتكف عن العمل، و ليس لمعنى تحدثة، ويعدها ابن الحاجب بمنزلة الزائدة (بحث الدكتورة فاطمة راشد الراجحي، ١٩٩٧) [٢٠]؛ ولنا وقفةٌ عند رأي ابن عقيل، إذ إنّ مذهبه متابعٌ شيخَه ابن مالك في بقاء عمل (ما) الكافة بعد دخولها على (ليت)، وهو قليل لأنّ (قد) تفيد التقليل، أي: ربما تدخل (ما) على هذه الحروف ويبقى عملها، لكنه قليل كما أشار إليه ابن مالك، وظاهر كلامه أنه ممتنع في أخوات (إن) و قليل في (ليت)، و عليه بعض النحويين، إذ يقولون: إنه لم يسمع إلا في (ليت). أي: لم يسمع أن العمل يبقى مع (ما) إلا في (ليت) لا في غيرها؛ وعلى هذا فيكون التقليل في كلام ابن مالك باعتبار الأدوات لا باعتبار العمل، مثال ذلك في ليت: إذا أعملناها قلنا: ليتما زيداً قائمٌ، وإذا أهملناها قلنا: ليتما زيد قائم، فيجوز الوجهان؛ ولا يتفق الباحث معهم لعلتين: أولهما، مالمانع أن يكون التقليل لأخوات (إنّ) كافة، و الأمر

١٨– المغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري، ج٢ ص ١٨٣، دار الفكر بيروت، ط/٦، تحقيق: د مازن المبارك و محمد علي حمد الله.

١٩– التوطئة لأبي علي الشلوبين، تحقيق: الدكتور يوسف أحمد المطاوع، ص ٢٣١.

٢٠– بحث في (آراء ابن الحاجب النحوية في ابيات للمتنبي)، د فاطمة راشد الراجحي ص ٣٤، حوليات كلية الآداب – جامعة الكويت، الحولية الثمنة عشر، ١٩٩٧.

الآخر، إذا كان القياس على النص القرآني، فإنّها وردت مهملة في كل مواضعها (ابن مالك محمد بن يوسف، تح: محمد كامل بركات، ١٩٦٧) [٢١]، وحول التركيب اللغوي نقل السيوطي عن الشلوبين في معرض حديثه عن التركيب قوله: (وزعم الشلوبين أنّ الخليل ذهب إلى أنّ (إنما) مركبة من (أنّ + ما)، كما في (لن)فإنها مركبة من (لا + أن) وحدث مع التركيب معنى لم يكن قبله) (أبو علي الشلوبين، تح: الدكتور يوسف علي المطاوع، ١٩٨١) [٢٢]، وتابعهم السيوطي في (إذما) فيذهب إلى أنها مركبة من (إذ) الظرفية و (ما)، و أحدث التركيب فيها أن نقلها إلى الحرفية حتى صارت تعطي معنى الزمان المستقبل، و الحال نفسه في (مهما) فيذهب السيوطي إلى أن أصلها (مه) التي بمعنى: اكفف، وضُمَّت إليها (ما) فتركبا فصارا كلمة واحدة، و أحدث فيه التركيب معنى لم يكن و هو معنى الشرط، ويذكر السيوطي نظائر كثيرة لذلك، كلها ترسخ اختلاف المعنى بعد التركيب، أي بعد التركيب يصبح اللفظ جديدا، و دلالته مستقلةً عن الأصلِ (أبو علي الشلوبين، تح: الدكتور يوسف علي المطاوع، ١٩٨١) [٢٣].

المطلب الثاني: اختلاف المعني و التمييز الدلالي بين (إنّما) و (إنّ):

الحرف (إنّ) – و بمنأى عن الخلاف بين نحاة الكوفة و البصرة أو بين النحاة المتقدمين أنفسهم – فهو حرف يشبه الفعل بالعمل – على رأي المتأخرين –، يدخل على الجملة الاسمية لتأكيد العلاقة بين ركني الإسناد، ويفيد قصر المسند إليه على المسند و توكيده في مسمع المتلقي –كما أسلفنا–، ولكنّه توكيد مزيته أن يكون يقين العلم و معرفته مقتصراً على المتحدث حصراً و منفردا به، بمعنى أن المخاطب يجهل مسوغ التوكيد و الدافع له، أمّا بالنسبة للمتحدث فالتوكيد بـ (إنّ) يعد توكيدا ذاتيا صادرا عن إرادته بحيث يجهل المتلقي هذا الدافع الذاتي، أي: أنّ دليل التوكيد لمضمون العبارة موجود عند المتحدث حصراً، ومختصاً به، ولا علم للمتلقي بهذا الدليل الذي يُرمَز له بالحرف (إنّ) فالمتلقي غير مسبوق بالخبر، إذْ سمعَ العبارةَ مسبوقة بأداة التوكيد، و لم يعرف دافع التوكيد و علته أو سببه، إذْ عبّر عنه المتحدث بالحرف (إنّ)، وربما ينوي المتحدث أن لا يعلِّم المتلقي بالدليل الذي يجعله يصرّ على توكيد عبارته؛ و يفرق الامام الجرجاني في موضوع التوكيد بين (إنَّ) و (إنّما)، فيرى أنّ (إنّما) تجيءَ لخبرٍ لا يجهلهُ المخاطَب ولا يدفَعُ صحَّتَه أو لما ينزل هذه المنزلة؛ تفسيرُ ذلك أنك تقولُ للرجل: إنّما هو أخوكَ وإنما هُوَ صاحُبك القديمُ، لا تقولُه لمن يجهلُ ذلك ويدفُع صحتَه ولكن لمن يعلَمُه ويُقرُّ به؛ إلاَّ أنَّك تريدُ أن تنبهَهُ للذي يجبُ عليه من حقِّ الأخِ وحرمةِ الصاحِب، فهو على علم بأخوّتِك، وغيره من السامعين يعلمون بأخوّتكِم، فهي تذكرة لتوكيد خبر سبق و

٢١– شرح التسهيل تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد لابن مالك، ج١، ص ٣٩٢.
٢٢– التوطئة لأبي علي الشلوبين، تحقيق: الدكتور يوسف أحمد المطاوع، ص ٢٣٤.
٢٣– ينظر: الأشباه و النظائر، جلال الدين السيوطي، ج١ ص ٩٨، ينظر التوطئة لابي علي الشلوبين، ص ٢٧، تحقيق: الدكتور يوسف أحمد المطوع، مطبعة الكويت، ١٩٨١.

إن شاع و انتشر، نحو قوله تعالى: ﴿إنّما يستَجيبُ الذينَ يَسْمَعون﴾ (الأنعام: ٣٦)، و منه قوله تعالى: ﴿إنّا مَعَكُم إنّما نَحنُ مُستَهزِؤون﴾ (البقرة: ١٤)، كل ذلك تذكير بأمر ثابت و معلوم، فكل عاقل يعلم أنّه لا تكون استجابة إلّا ممّن يسمع و يعقل، ومن لم يسمع ولم يعقل فلا يستجيب؛ و في الآية الثانية نلحظ أنّ شياطينهم أعرف بحقيقة مذهبهم بقرينة الضمير (هم)، فجاءت القرينة اللغوية تؤكد انتماءهم بقولهم: (إنّا معكم) فجاء التوكيد بيّناً من قبلهم بـ (إنّما) لأنّ المخاطب لا يجهل أمرهم، و لا يدفع بصحته، فهو إخبار عام شائع بينهم؛ وعلى ذلك رأي الطباطبائي يقول: (إنّ القصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ لهو قصر الإفراد، كأنّ المخاطبين يظنّون أنّ الولاية عامّة للمذكورَين في الآية وغيرهم، فأفرد المذكورين للقصر، ويمكن بوجه أن يُحمل على قصر القلب) [٢٤] (محمد حسين الطباطبائي ٢٠٠٠)؛ على حين نلحظ الحرف (إنّ) على خلاف ذلك، إذ تجيء لتوكيد خبر يجهله السامع، و يطعن بصحته، و سر التوكيد محفوظ لدى المتحدث، ولا دراية للمتلقي به أصلا و لا علم له به، و ربما لا يريد المتحدث البوح به و كأنّه سر كبير، فيرمز إليه بلفظ الحرف (إنّ)، نحو قوله تعالى: ﴿إنّ المتّقينَ في مقامٍ أمين﴾ (الدخان: ٥١)، فمن يجزم بمقام المتقين بأنّه أمين؟، هو من تفرد به علمه —سبحانه— و لا أحدٌ غيرُه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إنّي أعلمُ غيبَ السمواتِ و الأرض و أعلم ما تُبْدُون و ما تَكتمون﴾ (البقرة: ٣٠)، فالشاهد قوله: (إنّي أعلم) تُبينُ حقيقة تفرده –سبحانه و تعالى– بتعيين خليفته في الارض، و تفرده –سبحانه – ما مكتوب في مكنون علمه من أسرار الخلق و تكوينه، فالغيبُ علمٌ تفرد به –سبحانه– و لا يشاركه أحدٌ من خلقه، ولا يمكن كشف اسرار القدرة الهية، أو حتى البحث فيها؛ ومجمل القول في (إنّ) إنّها تفيد التوكيد و تقرير العبارة في أذن السامع، مع تفرد المتحدث بدافع التوكيد و قوته و سببه، يقول الإمام الجرجاني: (و أن يحتَجَّ لنفسه الأمر و يبيّن وجه الفائدة فيه (عبد القاهر الجرجاني، تح: الدكتور ياسين الأيوبي، ٢٠٠٢) [٢٥]؛ أمّا الأداة (إنما) فعملها أوسع من (إنّ)، إذ إنّها تدخل على الجملة الاسمية، نحو قوله تعالى: ﴿إنّما مَثَلُ الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه﴾ (يونس: ٢٤)، وكذلك تدخل على الجملة الفعلية، وبالوظيفة نفسها و دلالتها، في الحالتين، نحو قوله تعالى: ﴿قالْ إنّما أشْكُو بثّي و حُزْني إلى الله﴾ (يوسف: ٨٦)، خلافاً للحرف (إنّ) الذي لا يدخل إلّا على الجملة الإسمية و يؤثر فيها تأثيراً لفظيّاً و وظيفياً؛ فلا مزية من هذا التركيب المزمع، و لا مسوّغ له، في الوظيفة و لا في الدلالة الصوتية، فكلا الأداتين تقومان بحصر أحد ركني الإسناد في الآخر، وهو أمر اقتضى أن يلزم المحصور والمحصور فيه موقعيهما في التركيب؛ و السؤال الذي نحاول الإجابة عنه هو، أيهما الأرجح في الناتج الدلالي؟ أن نستغرق في تقعيد (إنّما) بنْيَة و وظيفة؛ أم نصرف كلا الأداتين إلى بنيته، و وظيفته،

٢٤– الميزان في تفسير القرآن، ج٦، ص ١٤.
٢٥– دلائل الإعجاز، ٣١٩.

و دلالته؟ كي يتنوع الناتج الدلالي و يتعدد، لاسيما أن الإعراب هو المعنى، ويعد الباحث محاولة الدمج بين الأداتين و صياغة القواعد حولهما، محاولة النحويين في تكييف النص القرآني لقواعدهم، كما حصل في تقدير المحذوف الافتراضي، فنلحظ (إن) لا تدل على الحصر بالوضع، كما إنّ الحصرَ لا يُفهم من أخواتها الائي كُفّفن بـ (ما)، ويرى أبو حيّان أن لا فرق بين (لعل زيداً قائمٌ و لعلّما زيدٌ قائم، فكذلك قولنا: إنّ زيدا قائمٌ، و إنّما زيدٌ قائمٌ، و إذا فُهمَ الحصر فإنّما يُفهمُ من سياق الكلام و ليس وجود (إنّ و إنّما) دلت عليه (أبو حيان الغرناطي، تح: الدكتور عبد الرزاق المهدي ٢٠١٠) [٢٦]؛ وعدم الخروج عن تلك القواعد القياسية؛ ونجمل القول بما يوحي الفروق في معنى السياق عند دخول إحدى الأداتين عليه بما يأتي:

١- يظهر أنّ اختصاص (إنّما) اللفظي يشمل الحصر و القصر في الجملتين: الاسمية و الفعلية.

٢- لا يتوقف عمل (إنّما) الدلالي الذي هو القصر و الحصر، فيتوسع إطلاقها، ليشملَ التوكيد العام الشائع بين المتحدث و المتلقي، لأنّ المخاطب لا يجهل الأمرالذي يريد توكيده المتحدث، و لا يدفع بصحته، بل يرد من باب التذكير و التقرير، ويتحرر من خصوصيته التي كانت مقتصرة على المتحدث فقط، و نلحظ ذلك في صياغة عبارة أغلب الأحكام الفقهية في القرآن المجيد، إذ غالبا ما يتم توكيدها بـ (إنّما) نحو قوله تعالى:﴿إنّما يأكُلون في بطونِهم نارا﴾ (النساء: ١٠). بملحظ أنّ مواضع ورود (إنّ) في النص القرآني يختلف دلاليا عن مواضع ورود (إنّما)، و -سنوضّح ذلك في المبحث الثاني-

٣- تخرجُ (إنّ + ما) عن دائرتها التقعيدية في النحو، لتذهب إلى دلالة بلاغية أكثر أهمية في مستوى الكلام، عند اختلافهما، فدلالة (إنما) الحصر، -و هو الشائع- وهذا أصل في الوضع، وهي دلالة سياقية بلا خلاف، ولكن السياق قد يتضمن ما يخرجها من دلالتها الحصرية بشيء من التوسع، كما هو الأمر في همزة الاستفهام التي قد تدل في سياق آخر على غير الاستفهام عند الاستعانة بالنبر الصوتي، كالعتاب والتوبيخ والسخرية؛ يقول أحد علماء اللغة من المحدثين في (إنّما): (أن لهذا الحرف معاني مختلفة تلتمس من السياق ومن الخير اكتسابها لا إهدارها، إذ نلحظ أنّ أكثر جهود النحويين عنيت بإعراب الأداة (إنّما) بين الإعمال و الإهمال، ومنها جهود الجرجاني في بيان معاني (إنما)، و تبُيّن موقف عبدالقاهر في أثر نظرية النظم في مقاربته لـ(إنما) وتذوقه لشواهده، ومعه من يشبهه من أهل التفسير، و كذلك نلحظ المحدثين قد أهدروا رأي الفقهاء والأصوليين، وأنهم حاولوا متابعة النحويين، و ردّ الآراء إلى رأي واحد لكي لا تخرج (إنما) عن معنى الحصر (بحث (إنما بين الكسب و الهدر) منشور في مجلة الدراية، عدد١٢، ٢٠١٢). [٢٧]

٤- و من مدلولاتها اللغوية كذلك أن يكون المقصور بعد (إنما) والمقصور عليه هو المؤخر.

٢٦- تفسير البحر المحيط، ابن حيّان الغرناطي، ج١، ٩٠.

٢٧- دائرة المعاني في (إنما) بين الكسب و الهدر، بحث منشور في مجلة الدراية (كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق، ع١٢، ج٥، ٢٠١٢م، ص٢٧٠١- ٢٧٣٤.

قال تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ من عبادِهِ العلماءُ﴾ (فاطر: ٢٨)، فـ (إنما) أداة أفادة معنى القصر و الحصر، ودلالتها في الآية الكريمة تعني: أنّ العلماء يخشون الله، و كذلك بقية الخلق، ولكن العلماء أكثر من غيرهم، إذْ وقع القصر على الفعل (يخشى)؛ و الحصر وقع على (العلماء)؛ ولو كان التقدير في غير القرآن و وقع القصر على العلماء وتقول: (إنما العلماء يخشون الله)، يعني هذا الكلام أن غير العلماء لا يخشون الله، و إنّ العلماءَ وحدَهم –وليس أحد سواهم– يخشون الله (محمد راتب النابلسي، ٢٠١٩) [٢٨]؛ إذْ إنّ فائدة تقديم المفعول هنا: حصر الفاعلية، أي أن الله تعالى لا يخشاه إلا العلماءُ، ولو قُدّم الفاعلُ في غير القرآن المجيد لاختلفت الدلالة وأُفرغ النص من محتواه وتصبح الإشارة خلاف ذلك، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ خَشِيَ اللَّهَ فَهُوَ عَالِمٌ، وَلا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ عَالِمٍ يَخْشَاهُ (ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، تح: الدكتور محمد عبد الرحمن المرعشي و آخرون، ٢٠١٦) [٢٩]؛ قال ابن كثير:(إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر) (عماد الدين بن اسماعيل بن كثير الدمشقي، تح: سالم بن محمد السلامة، ١٩٩٩) [٣٠].

و لتوضيح ذلك نقول: الجواهري شاعر، فقد يكون الجواهري كاتباً، وقاضياً، وحقوقياً، وإذا أردنا أن نقصر صفة الشاعر عليه و نجعله شاعرا فقط، قصرنا الجواهري على الشعر، نقول: إنما الشاعر الجواهري، أما إذا قلنا إنما الجواهري شاعر، يعني ليس هناك شاعرآخر، هو وحده الشاعر، ومن يفهم دلالتها في القرآت المجيد يصبح فهمه للآية دقيقاً؛ ذلك الحال إذا قلت: المؤمنون إخوة، هذا لا يمنع أن يكون الكفار والمنافقون إخوة، أما إذا قلت: إنّما المؤمنون إخوة فمن لا يؤمن بالله لايدخل ضمن أخوة المؤمنين و قد قصرت الأخوة على المؤمنين، فالله عز وجل يذّكِر بآياته الكونية، إنّما يذّكِر بآياته التكوينية.

و أغلب النحاة المتأخرين لا يخرجون عمّا ذهب إليه المتقدمون، فالسيوطي من المتأخرين يقول: (الجمهور أنها للحصر، وأنكر قوم إفادتها، منهم أبوحيّان) (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح: أحمد شمس الدين، ١٩٩٨) [٣١]، ويبدو أن السيوطي أغفل مذهب سيبويه، في إفادتها التحقير (سيبويه أبو بشر عمر بن عثمان، تح: عبد السلام هارون، ١٩٨٨) [٣٢]، فقد ذكر أحد علماء اللغة العرب مذهبَ البطليوسي بأنّ لها معنيين عند البصريين هما التقليل والاقتصار، وزعم أن الجرجاني أورد لها معانٍ عدة، قال: (أ ظن أنّ هذا القدر من الآراء كاف لامتحان كلام السيوطي، وبيان أنه ليس في هذه الآراء، ما يعينه على التصريح

٢٨– التفسير المختصر – سورة الأنفال (٠٨) – الدرس (٦–٣): تفسير الآيات ٤–٣–٢.
٢٩– ينظر: تفسير البيضاوي، ج٤، ٤١٨. فتح القدير، الشوكاني، ج٤، ٤٩٤.
٣٠– تفسير ابن كثير، ج ٤، ٧٢٩.
٣١– (همع الهوامع) ١: ١٩٢. معترك الأقران، ١: ١٣٨. والنص فيه «(إنما) الجمهور على أنها للحصر، فقيل بالمنطوق وقيل بالمفهوم، وأنكر قوم إفادتها، منهم أبو حيان». وأمّا النص الآخر فليس في معترك الأقران كما أثبت الدكتور بل في (همع الهوامع) ١: ١٩٢.
٣٢– شرح الكتاب، ٣: ٢١٥.

بما قاله والحقّ عندي أنّ هذا القدر من الآراء، لقلتها، لا يخلّ بما قاله السيوطي عن مذهب الجمهور) (بحث الدكتورة مها صالح عبد الرحمن ١٤٢٤ هـ) [٣٣]، و يبدو للباحث أنّ هذه الآراء – إذا ما نسبتْ لـ (إنّما) معنى غير الحصر، لذلك كانت الدكتورة موفقّة في ردّ اقتصار السيوطي على إنكار أبي حيّان معنى الحصر في (إنما)، فأبو حيّان وإن أنكر دلالتها على الحصر فقد ذكر إشعارها بالحصر وجاء بمعان أخر، والمتأمل لقول السيوطي يراه يذكر أنّ الجمهور يثبتون لـ (إنما) معنى الحصر؛ ولكنه لا يعني بالضرورة نفيه أنهم يرون استعمالها في غير الحصر؛ ومن ثمّ فالاستدلال بإهمال ذكر الحصر لـ(إنما) في كتاب سيبويه هو استدلال بدليل عدميّ، فتركه الإشارة إلى معنى الحصر لا يعني أنه لا يراها كذلك، فقد فات سيبويه من الأبنية ما استدركها متابعوه، لأنّ الموضع المستشهد به من نصّ الكتاب نصّ واحد جاء في سياق بيان حكم رفع الفعل أو نصبه بعد (حتّى)، إذ لا ينصب في سياق النفي، وكذلك ما هو مثله من التقليل، وهو معنى يمكن أن يستفاد من دلالة (إنما) على الحصر، فالمعنى المختلف هو للحصر بـ(إنما) وليس لها نفسها، كما يكون للاستفهام غير معنى، وإن لم تزل أداة الاستفهام عن معنى الاستفهام. وكما يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي من طلب تعيين أو تصديق.

المطلب الثالث: الفرق بين دلالتي: (إنّما) و (ما + إلا)

اشتهرت (إنّما) عند البلاغيين و النحويين و المفسرين أنّها أداة (حصر و قصر)، و (ما+ إلّا)، وكلا الأداتين مترادفتان لتضمنهما المعنى المتوخى من النفي و الاستثناء، نحو قوله تعالى: ﴿إنّما نحن مُصْلِحون﴾ (البقرة: ١١)، أمّا جملة الاستثناء المنفي بـ (ما) الحصر، الذي هو عين القصر عند البلاغين، ويعني تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص، وليس مفهوم القصر مقتصراً على (إنما) و (ما + إلا) فقد يكون القصر بحرف العطف نحو قولنا: أقبل محمد لا خالد، و قد يكون بتقديم ماحقه التأخير نحو قوله تعالى: ﴿إيّاك نعبد و إيّاك نستعين﴾ (الفاتحة: ٥)، و منها قصر اسلوب التفريغ في الاستثناء، أو ما يسمى بالاختصاص، وغيرها من اساليب القصر التي تكون لما هو ظاهر مما لا ينكره المخاطب، (الدكتور فاضل صالح السامرائي، ٢٠١٧)، [٣٤] نحو قوله تعالى: ﴿و ما يخدعون إلّا أنفسهم﴾ (البقرة: ٩)؛ وبغية رفع اللبس عن هذين المعنيين نحذف أداة النفي وأداة الحصر فإذا تم المعنى يكون حصرا، و إذا لم يتم فهو استثناء، كذلك إذا كانت الجملة مثبتة غير منفية، فتكون على الاستثناء، لأن الحصر يُشترط به النفي أو شبهه، فالاسم الواقع بعد (إلا) يُعرب: مستثنى أو بدل، أمّا الاسم الواقع بعد (إلّا) في الحصر فيُعرب بحسب موقعه من الجملة؛ وترجع [٣٥] مزية استعمال (ما + إلا) يتضح أنّ هذا التركيب اللغوي منطوق مخصص للحصر شريطة وجود

٣٣- دائرة المعاني في (إنما) بين الكسب و الهدر، ص٩.
٣٤- معاني النحو، الدكتور فاضل السامرائي، الجزء الثاني، ٢١٦.
٣٥- معاني النحو، الدكتور فاضل السامرائي، ج٢، ٢١٩.

إنكار مسبق اتفاقا، فهو قصر بالنفي و الاستثناء فإنما يكون لما ينكره المخاطب، أو ما ينزل هذه المنزلة،، أمّا في استعمال (إنما) ففيها خلاف، وإن كان الأكثر على إفادتها الحصر؛ كما قال السيوطي للحصر قال الأكثرون الأداة (إنما)؛ وعلى القول بأن (إلا) تفيد الحصر فقد اختلف في نوع دلالتها أهي بالمنطوق أم بالمفهوم،، و الصحيح هي بالمفهوم، أما (ما + إلا) فهي بالمنطوق اتفاقا؛ ومن الفروق كذلك نلحظ أن (إنما) سياقها إثبات وإن كان معناها النفي، أما (ما + إلا) فهي نفي صريح، (الدكتور فاضل صالح السامرائي، ٢٠١٧) [٣٦]؛ نقل الإمام الجرجاني عن الشيخ أبو على فى الشيرازيات: يقول ناس من النحويين فى نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ ربي الفواحش ما ظهرَ منها و ما بَطَنَ﴾ (الأعراف: ٣٣)، إنَّ المعنى: ما حَرَّمَ ربي إلا الفواحشَ. والمعنى مطلق الفواحش من الأعمال فالحصر في التحريم و القصر على الفواحش، فهذا إثبات صريح في مقابل القصر بالنفي و الاستثناء قال: (أعلمْ أنَّهم وإنْ كانوا قَدْ قَالوا: هذا الذي كَتْبتُه لك فإنَّهم لم يَعْنُوا بذلك أن المعنى في هذا هُوَ المعنى في ذلكَ بعينِه وأنَّ سبيلَهُما سبيلُ اللفظين يُوضعان لمعنًى واحدٍ.

وفرقٌ بينَ أنْ يكونَ في الشيءِ معنَى الشيءِ وبينَ أن يكونَ الشيءُ للشيءِ على الإطلاق. يُبيِّنُ لك أنَّهما لا يكونان سواءً و ليس كلُّ كلامٍ يصلحُ فيه (ما + إلا) يصلحُ فيه (إنما)) (عبد القاهر الجرجاني، تح: الدكتور ياسين الأيوبي، ٢٠٠٢) [٣٧]، ويبدو للباحث أنّ في جملة (ما + إلّا) هناك إنكار صريح من المخاطب، وهي بمنزلة الردُّ على ذلك الانكار، لأنّ جملة الاستثناء المنفي تفيد التقرير و التثبيت في مقابل الانكار المزعوم، ففي هذا تحصل فائدة التمييز بين الأداتين و إنّهما ليسا سواءً لأنهما لو كانا كذلك ينبغي أن يكونَ في (إنما) منَ النفي مثلُ ما يكونُ في (ما +إلاّ)؛ و لما ذهب بعضهم إلى أنّ (إنّما) في معنى (ما +إلا) لم يَعْنوا أنَّ المعنى فيهما واحدٌ على الإطلاق وأن يسِقطوا الفرقَ في تركيب العبارة و دلالتها، فضلا عما أسلفنا ذكره من أنّ (إنما) تجيءَ لخبرٍ لا يجهلهُ المخاطَب ولا يدفَعُ صحَّتَه أو لما ينزَّل هذه المنزلة.

المبحث الثاني: الاستعمال الاصطلاحي

المطلب الأول: الناتج الدلالي لاستعمال (إنّما) في النصوص القرآنية

وردت (إنما) في القرآن المجيد في (١١٣) موضعا، و اغلب مواضعها تشير إلى دلالات متعددة بحسب السياق الذي ترد فيه فضلاً عن إفادتها معنى الحصر و القصر، كما أفاد منه النحويون و البلاغيون في وضع قواعدهم، خلافا لـ (إنّ) إذ أنّ توظيفها النحوي محدود، و دلالتها واحدة في إفادتها التوكيد، وهذا ما يعزز

٣٦- المصدر نفسه، ٢١٦
٣٧- ينظر: دلائل الإعجاز، ٣٢٩

رأي الباحث في أنّ الأداتين تختلفان من جهة البنية و الدلالة و الوضع، فلا مندوحة من معرفة دلالات (إنّما) في النص القرآني الكريم إذ تم تقسيمها بحسب استعمالاتها اللفظية و الدلالية كما يأتي:

أولا: الدلالات اللفظية

أ- الاستدراك: هو توظيف افضى لمعنى الحرف (لكنْ)، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إنّما أنا بشرٌ مثلكم يُوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحدٌ﴾ (الكهف: ١١٠) إذ خرجت (إنّما) عن معناها و أفادت معنى جديد يفيد الاستدراك على شيء سائد، و شائع المعرفة، إذ كان اعتقادهم بأن الأنبياء ليسوا كالبشر، فقد استدرك على ماشاع بين العامة بأن الوحي مختص بالملائكة، أما قول النبي -ﷺ-: أنا بشرٌ، فهو مستندٌ إلى ما أوحي إليه من تكليف إلهي (ابن حيان أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي، تح: الدكتور عبد الرزاق المهدي، ٢٠١٠) [٣٨]؛ ومذهب ابوفخر الرازي بأنّ (إنّما) هنا تفيد مطلبين هما: إنها تفيد الحصر، و الأمر الآخر إنها تقصر الوحي على بشر وليس لملك من الملائكة (أبو فخر الرازي، تح: دار الفكر ١٩٨١)؛[٣٩] و منه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ (المائدة ٥٥)، التي جاءت مقيّدة بأداة (إِنَّمَا)؛ و يبدو للباحث أنّ الاستعمال القرآني وضّفها لمعان كثيرة، مما يعزز الاعتقاد لدينا بأنّها تختلف عن الحرف المشبّه بالفعل (إنّ) في البناء و الوظيفة و الدلالة، فقد وضّف القرآن المجيد تلك المعاني و الدلالات و زين بها أساليب الصياغة وعمّق بها المعنى.

ب- الاضراب وهو توظيف أفضى لمعنى الحرف (بل) التي تفيد الاضراب بكثرة و التثبت و التوكيد، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إنّما هوَ إلَهٌ واحدٌ وَإنَني بريءٌ مما تُشرِكون﴾ (الأنعام: ١٩)، و نحو قولنا: القدس لا تَهُمُّ العربَ وحدَهم وإنّما تهمُّ المسلمين والمسيحيّين في العالم كلِّه، و منه قوله تعالى: ﴿إنّما النجوى من الشيطان لِيَحْزُنَ الذين آمنوا﴾ [٤٠] (المجادلة: ١٠)، إذ يرى الرازي في تفسيره أن (أل) في لفظ النجوى للمعهود السابق وهي النجوى بالاثم و العدوان التي حملهم الشيطان عليهم بها، و ليس (ال) لاستغراق الجنس، بمعنى أن التوكيد وقع على المعني المقيد و تخصيصه بالسابق من النجوى، في خلال المعنى الذي أدته (إنما) و هو الاضراب عن مطلق النجوى (أبو فخر الرازي، تح: دار الفكر ١٩٨١) [٤١].

ت- ترد كذلك بمعنى الذي: في قوله تعالى: ﴿إنّما صَنَعُوا كَيْدَ ساحرٍ﴾ (طه: ٦٩) إذ يرى الفراء أنها بمنزلة (إن الذي...) إذا نُصِبَتْ (كيد) إذ جعل (إن + ما) حرفا واحدا (أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تح: أحمد يوسف النجاتي و آخرون، ٢٠١٧) [٤٢]؛ ويخالفه أبو حيان الغرناطي إذ جعلها مفصولة لأنّ (ما)

٣٨- ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيان الغرناطي، ج٦، ٢١٠.
٣٩- ينظر: التفسير الكبير و مفاتيح الغيب: الفخر الرازي، ج٢١، ١٢١، ط١، دار الفكر للطباعة و النشر، بيروت، ١٩٨١.
٤٠-
٤١- ينظر: المصدر السابق، ج ٢٩، ٢٦٩.
٤٢- معاني القرآن للفراء، ج١، ص ١٠٠.

موصولة بمعنى الذي، ويحتمل أبو حيان أنّها مصدرية بمعنى (إن صنعتم كيد) ثم نقل عن مجاهد قراءته بالنصب مفعولا لـ (صنعوا) ويعد (ما) مهيئة.

ث- وردت كذلك في موضع التوكيد اللفظي، نحو قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ (آل عمران: ١٧٨).

ثانيا: التوظيف النحوي

أ- أن يخرج الحصر إلى مستوي التوكيد المعنوي نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهزِؤون﴾ (البقرة: ١٤)، إذ نلحظ أنّ عبارة (إنّما نحن مستهزؤون) خرجت عن معنى الحصر لتفيد معنى التوكيد لجملة (إنّا معكم).

ب- و ترد خبر (إن التوكيدية) وتكون بمنزلة جواب شرط، نحو قوله تعالى: ﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنّما يأكلون في بطونهم نارا﴾ (النساء: ١٠) و في مضان الباحث لم يجد موردا لها يفيد التحقير بحسب ما ذهب إليه سيبويه إذ ذكر (أنّ (إنما) تكون على وجهين: أحدهما تحقير الشيء، والأخر الاقتصار عليه) [٤٣]، و لدى مراجعة استعمال الأداة في لغة سيبويه لم يَبُنْ استعمالها للتحقير، بل للحصر، و يبدو أنّ سيبويه قد يعني أمرا أخر بـ (التحقير)، إذ إنّ سيبويه انفرد بصياغة عنوانات موضوعات كتابه منها على سبيل المثال لا الحصر قوله.، [٤٤]، عن الأفعال: (و إنما هي من الأسماء، ألا ترى أنّ الفعل لا بدّ له من الاسم) [٤٥]، وقوله (وأما يشكر فإنّه لا يكون صفة وهو اسم، وإنما يكون صفة وهو فعل) [٤٦]، وقوله: (إنما يخرج التأنيثُ من التذكير) [٤٧] وقوله: (و قولهم أسْطاع يُسْطيعُ، وإنما هي أطاع يُطيع) [٤٨] (سيبويه أبو بشر عمر بن عثمان، تح: عبد السلام هارون، ١٩٨٨)؛ فهل دلالة ورودها في النصوص له دلالة على التحقير؟ اتضح من كل هذه الأمثلة أنّها لا تخرج عن معنى الحصر العام؛ و ليس أدل على ذلك من آيات ورود دلالة (إنما) على الحصر في كلّ مواضعها السابقة -كما اسلفنا- إذ يجوز إحلال (ما+ إلا) محلها.

ثالثا: التوظيف الدلالي

أ- ترد (إنّما) لخبرٍ معلوم لا يجهلهُ المخاطَب ولا يدفَعُ صحَّتَه أو لما ينزَّل هذه المنزلة؛ تفسيرُ ذلك أنك تقولُ للرجل: إنّما هو أخوكَ وإنما هُوَ صاحُبك القديمُ، هذا القول لا تخاطب به من يجهلُ ذلك ويدفُع صحتَه ولكن لمن يعلَمُه ويُقرُّ به، إلاَّ أنَّك تريدُ أن تنبهَهُ للذي يجبُ عليه من حقِّ الأخِ وحرمةِ الصاحِب،

٤٣- الكتاب: ج٣، ٢١٥.
٤٤- المصدر نفسه، ج٣، ١٤.
٤٥- المصدر نفسه، ج٣، ٢١.
٤٦- المصدر نفسه، ج٣، ٢٢.
٤٧- المصدر السابق، ج٣، ٢٢.
٤٨- المصدر نفسه، ج٣، ٢٥.

فهو على علم بأخوتك، وغيره من السامعين يعلمون بأخوتكم، فهي تذكرة لتوكيد خبر سبق و إن شاع و انتشر(عبد القاهر الجرجاني، تح: الدكتور ياسين الأيوبي، ٢٠٠٢) [٤٩]، خلافا للخبر بالنَّفي و تفيد التقرير و اليقين، نحو قوله تعالى: ﴿و ما يُعَلِّمان من أحدٍ حتى يقولا إنّما نحن فتنةٌ﴾(البقرة: ١٠٢)؛ وكذلك حال الخطاب بـ (إنّ) فالعقل ينصرف إلى خبر يعلمه المتحدث و يجهله المتلقي، نحو قوله تعالى:﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ (طه: ١٥) فمن يعلم علم الساعة غير الله –سبحانه–، لذلك كان الإخبار بـ (إنّ)، و الدليل على صحة ما ذهبنا إليه قوله –عزّ مَن قائل– : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ (الأعراف: ١٨٧)، فالمخلوقات جميعها تعلم إنّ علم الساعة متفرد بمكنون علم الله –سبحانه–.

ب– تفيد التقرير: فقد وردت في مواضع كثيرة إفادتها معنى الحسم و القرار النهائي نحو،قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِم إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّا﴾ (مريم: ٨٤)، مذهب ابن كثير في تقرير الآية الكريمة بأنهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله و نكالة (عماد الدين بن اسماعيل بن كثير الدمشقي، تح: سالم بن محمد السلامة، ١٩٩٩،) [٥٠]، ويذهب ابن حيان إلى وصف تقرير الآية و كينونته أي: لا تعجل عليهم من حكم الله النهائي عليهم فليس بينك و بين مالا تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة و أنفاس معدودة كأنّها في سرعة تقضيها الساعة التي هم فيها، ويرى أبو حيان أن الكينونة أمر آخر وهو ما دلّ على الاختراع و سرعة تكوينه، و عنده إذا أكدوا الفعل بالمصدر كان حقيقة و معنى (إنّما) أن يقول له كن فيكون بكونه، و المراد نفاذ سرعة قدرة الله في تقرير الأشياء و تكوينها، (أبو فخر الرازي، تح: دار الفكر ١٩٨١، و ابن حيان أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي، تح: الدكتور عبد الرزاق المهدي، ٢٠١٠). [٥١] [٥٢].

ت– تفيد الاجتناب و التحذير: نحو قوله تعالى: ﴿إِنّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكم العَداوَةَ و البَغْضاءَ في الخَمرِ و المَيْسَرِ﴾ (المائدة: ٩١)، إذْ زعم الرازي أن تصدير الآية الكريمة بـ (إنما) لغرض التحذير عن مسوغات التحريم في هذه الموبقات و المراد تجنبها و الابتعاد عنها، فالاجتناب عنده فلاح و ارتكابها خيبة (أبو فخر الرازي، تح: دار الفكر ١٩٨١) [٥٣]، و مذهب أبن حيان في هذا الموضع أنها للتحذير من قبح هذه المفاسد و التنبيه لغرض الابتعادا عن تعاطيها، (ابن حيان أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي، تح: الدكتور عبد الرزاق المهدي، ٢٠١٠) [٥٤]، ويبدو للباحث إنما جاءت الأفعال في صيغة المستقبل فقد

٤٩– دلائل الإعجاز، ٣١٩.
٥٠– ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٩، ٢٩٥.
٥١– ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج ٦، ٢٦٧
٥٢– ينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج١، ٥٢٦.
٥٣– ينظر: التفسير الكبير و ومفاتيح الغيب، الامام محمد الرازي فخري الدين، ج ١٢، ٨٥.
٥٤– ينظر تفسير البحر المحيط، أبو حيان الغرناطي، ج٤، ٢٢.

بانت دلالتها على المدى المرسوم عند مشيئته –سبحانه–، فهو تحذير لا محالة من هذه الموبقات المنصوص عليها في الآية الكريمة، و تنبيه لما قد يحصل، بناءاً على ما حصل من عداوة و بغضاء بسببها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذِلكُم الشيطانُ يُخَوّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهم وَ خَافُونِ إِنْ كُنْتُم مُؤمِنينَ﴾ (آل عمران).

ث– تدل على إقرار الأحكام الشرعية و تثبيتها: وردت (إنّما) في تثبيت مورد الفروض و الواجبات و إقرار أحكامها، وعلة اجتنابها،في النصوص القرآنية جميعها، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّما حَرَّمَ عَليكم المَيْتَةَ وَ الدَمَ و لَحْمَ الخِنْزيرِ و مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ (البقرة: ١٧٣).

ج– تدل على إبانة الحقائق و تثبيتها:

إذ إنّ الإخبار بها يفيد تأييد المتلقي بما عند المتحدث من إخبار ولم يتفاجأ بها، لشيوع الخبر وانتشاره بدلالة استعمال (إنما) من باب توكيد ذلك الانتشار و ذلك الشيوع، قال تعالى: ﴿إِنَّما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾ (النساء: ١٧).

قائمة المصادر و المراجع

القرآن المجيد

١– (دائرة المعاني في –إنما– بين الكسب والهدر)، بحث الدكتور عادل حسني يوسف، مجلة مركز الملك فيصل للدراسات، العدد ٨ لسنة ٢٠١٠.

٢– (إنما في السياق: التركيب و الدلالة)، بحث الدكتورة مها صالح عبد الرحمن الميمان، منشور في مجلة الدراسات اللغوية (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية)، المجلد الخامس العدد الرابع الصادر في شوال–ذي الحجة ١٤٢٤هـ.

٣– شرح الكتاب للسيرافي: الحسن بن عبد الله المرزبان السيرافي، تحقيق، أحمد حسن المهلي و علي سيد علي، ٢٠٠٨.

٤– معاني القرآن، أبو زكريا يحي بن زياد الفراء، ج١، ص ١٠٠، دار الكتب بيروت، ط٣، ١٩٨٣.

٥– جنى الداني، المرادي ص٣٣٥، و رصف المباني، المالقي، ٣٨٤.

٦– تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الغرناطي، تحقيق الدكتور عبد الرزاق المهدي، دار احياء التراث العربي، ٢٠١٠.

٧– الكتاب، عمر بن عثمان سيبويه، تحقيق الدكتور عبد السلام هارون، نشر مكتبة الخانجي، ٢٠٠٩.

٨– المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، ج٣، ص ٧٦، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة،، ط٢، القاهرة ١٩٩٤.

٩- دلائل الإعجاز في علم المعاني، الامام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق الدكتور ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية بيروت، ٢٠٠٢، ص ٣٢٧.

١٠- معاني النحو، الدكتور فاضل صالح السامرائي، شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣.

١١- في التحليل اللغوي، الدكتور خليل أحمد عمايره، ط١، مكتبة المنار، الأردن،١٩٨٧.

١٢- شرح التسهيل تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد لابن مالك، تأليف: جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني الأندلسي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا – طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ٢٠٠١.

١٣- المغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري، دار الفكر بيروت، ط/٦، تحقيق: د مازن المبارك و محمد علي حمد الله، ١٩٦٥.

١٤- التوطئة، أبو علي الشلوبين، تحقيق: الدكتور يوسف أحمد المطاوع، نشر جامعة الكويت، ١٩٨١.

١٥- آراء ابن الحاجب النحوية في ابيات للمتنبي، بحث الدكتورة فاطمة راشد الراجحي، مجلة حوليات كلية الآداب– جامعة الكويت، الحولية الثامنة عشرة، العدد الرابع، ١٩٩٧.

١٦- شرح التسهيل و تكميل المقاصد، جمال الدين محمد بن عبد الله ابن مالك، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن السيد و محمد بدوي المخنون، ٢٠٠٧.

١٧- الأشباه و النظائر، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: عبد الإله نبهان و غازي مختار طليمات و أحمد مختار شريف، نشر مجمع اللغة العربية في دمشق، ١٩٨٧.

١٨- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ١٩٩٧.

١٩- معاني (إنما) بين الكسب و الهدر، بحث الدكتور عادل حسني، منشور في مجلة الدراية (كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالرياض، عدد ١٢، المجلد الخامس ٢٠٠٦.

٢٠- أنوار التنزيل و أسرار التأويل، تفسير البيضاوي، أبو يعلي البيضاوي، تحقيق: محمد صبحي حسن حلان و محمد أحمد الأطرش، ٢٠١٢.

٢١- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني،تحقيق يوسف الغوش، نشر دار المعرفة بيروت،٢٠٠٧..

٢٢- تفسير ابن كثير، اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، نشر دار ابن حزم، ٢٠٠٠.

٢٣- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: الدكتور عبد العال سالم مكرم، نشر دار البحوث العلمية، القاهرة.

٢٤- مفاتح الغيب، التفسير الكبير، الامام فخر الدين الرازي، الناشر دار الفكر بيروت، ١٩٨١.

٢٥- معاني النحو، الدكتور فاضل صالح السامرائي، نشر دار الفكر للطباعة و النشر، عمان، ٢٠١٧.

٢٦- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة.